الشبهة التي أثارها المستشرقون

حول المكي والمدني – من القرآن الكريم

دكتور عبد المنعم ممدوح رماح

الرد على الشبهات التي آثارها خصوم الإسلام حول المكي والمدني :

وأما خصوم الإسلام على محاولة النيل منه ما إستطاعوا إلى ذلك سبيلا . ولذلك نجدهم يختلقون الأكاذيب والإفتراءات على الإسلام وعلى النبي محمد ﷺ :وعلى القرآن الكريم وهم مدفوعون إلى ذلك بحقد دفين يضمرونه للإسلام والمسلمين وإن غلفوا افتراءاتهم بدعوى البحث العلمي المتجرد .

ومنشأ الشبه التي أثاروها حول المكي والمدني من القرآن الكريم يرجع إلى إدعائهم بشرية القرآن .

فالقرآن في زعمهم ليس كتاباً سماوياً نزل به الروح الأمين على قلب النبي العربي محمد ﷺ : ليأخذ بيد الإنسانية الحائرة حتى يخرجها من ظلمات الشرك والوثنية إلى أنوار الهداية والتوحيد ، وإنما القرآن في زعمهم من تأليف محمد ﷺ : ومن عمل فكره وقد تأثر فيه بالبيئة المكية التي عاش فيها أولا ، ثم بالبيئة المدنية التي هاجر إليها بعد ذلك ،

وسوف نعرض شبههم ونستعين بالله تعالى على دفعها ، والقضاء عليها .

الشبهة الأولى

قالوا إن المتأمل المتدبر فى المكى والمدنى من القرآن يجد تغايراً واختلافاً بين إسلوب كل من القسمين عن الآخر :

فاسلوب القرآن المكى : ملىء بالآيات التى يظهر فى أسلوبها الشدة والغضب والقسوة والوعيد والتهديد والسب والإقذاع الذى نزل إلى إسلوب الأواسط البدائية المنحطة ومثلوا لذلك ببعض النصوص القرآنية التى غفلوا عن معانيها وعن أسباب نزولها وعما مثلوا به قوله فى سورة القلم « ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين سنسمه على الخرطوم » .

وبقوله تعالى فى سورة المدثر : « ذرنى ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالا ممدوداً وبنين شهوداً ومهدت له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيداً سأرهقه صعودا » .

وبقوله تعالى: فى سورة المسد « تبت يدا أبى لهب وتب . ماأغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد » .

وبقوله تعالى فى سورة التكاثر : « كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون . كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم . ثم لترونها عين اليقين ، ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » .

وقالوا إن أسلوب القسم المدنى يختلف عن أسلوب القسم المكى فهو يقسم باللين والموعظة الحسنة التى لاعنف فيها ويقسم بسمات أسلوب الأوساط المتحضرة واستدلوا لما زعموه بقوله تعالى : فى سورة البقرة المدنية

« آتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون».

وبقوله فى نفس السورة أيضا «تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات . وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ماأقتتل الذين من بعدهم من بعد ماجاءتهم البينات ولكن إختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولوشاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد» .

وبقوله تعالى : فى سورة آل عمران : «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم» .

وهم يريدون بهذا أن يقولوا إن القرآن من أسلوب محمد ﷺ : الذى ألفه من عند نفسه متأثرا فيه بالبيئة التى كان يعيش فيها فهو يقسم بالغلظة فى مكة لأنها كانت تغلب على طباع أهلها ويقسم باللين والاستعاره فى المدينه وبهدوء المناقشة للمخاطبين ، لأن أهل المدينة كانوا أهل مدنية وحضاره .

ونجيب على هذه الشبهة الخبيثة بما يأتى :

أولا : أن ما زعموه من تفرد القسم المكى بالعنف والشدة ينقضه أن فى القسم المدنى شدة وعنفاً ، وما زعموه من تفرد القسم المدنى باللين والصفح ينقضه أن فى القسم المكى آيات كثيرة تدعو إلى اللين والصفح وإلى مقابلة السيئة بالحسنة .

وإليك الأمثلة التى توضح ذلك من القرآن الكريم .

وقد جاء فى بعض السور المدنية آيات فيها شدة وعنف فمثلا فى سورة البقرة وهى مدنية : «فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين» .

وقال فيها أيضا : «إن الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس» .

وقال فيها أيضا : «يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله» .

وقال سبحانه فى سورة آل عمران وهى مدنية كتلك — «إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار ، كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب ، قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد» .

ومثال الآيات التى اشتملت على اللين والصفح ودعت إلى مقابلة السيئة بالحسنة فى القرآن المكى : قوله تعالى فى سورة فصلت المكية : «ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً ، وقال إننى من المسلمين ولا يستوى الحسنة ولا السيئة إدفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذوحظ عظيم» .

وكما فى قوله تعالى فى سورة الشورى المكية : «فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب اليم . ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور» .

وكذلك قوله سبحانه فى سورة الحجر المكية « ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين » ، إلى آخر السورة ، ومثله قول الله جلت قدرته فى سورة الزمر المكية : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » .

وإنما اشتمل القرآن الكريم تقسيمه المكى والمدنى على الشدة والعنف لأن ضرورة التربية الرشيدة فى إصلاح الأفراد والشعوب وسياسة الأمم والدول تقتضى أن يمزج المصلح فى قانون هدايته بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد والشدة واللين .

ثانياً : وأما زعمهم أن فى القسم المكى سبابا ويريدون من السباب نوعه المعروف عندهم من البذاءة والفحة الخارجة عن حدود الأدب واللياقة .

فنحن نقول لهم أن هذه دعوة رخيصة . لا دليل عليها ونتحداهم أن يأتوا بمثال واحد فى القرآن كله مكيه ومدنيه يكون فيه هذا اللون القذر الرخيص ، وهل يتصور عاقل أن القرآن الذى جاء يعلم الناس أصول الآداب يخرج هو عن أصول الآداب إلى السباب ؟ بل إن القرآن حرم على أتباعه المسلمين أن يسبوا أعداءه المشركين .

فقال فى سورة الأنعام : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم » .

ولسنا نذكر أن فى القرآن بقسميه المكى والمدنى سفيهاً لأحلام المشركين المتكبرين الذين يصمون آذانهم ويغمضون أعينهم عن الحق ويهملون الحجج

والبراهين وهو فى ذلك شديد عنيف ، بيد أنه فى شدته وعنفه لم يخرج عن جادة الأدب ولم يعدل عن سنن الحق ولم يصدف عن سبيل الحكمه . بل الحكمه تقتضاه أن يشتد مع هؤلاء لأنهم يستحقون الشده ومن مصلحتهم هم ومن الرحمه بهم والخير لهم أن يشتد عليهم ليرعوا من باطلهم ويصيحوا إلى صوت الحق والرشد ويسيروا على هدى الدليل والحجة.

والشاهد على أن فى السور المدنية تعريفا عنيفاً أيضا عند المناسبات قوله سبحانه من سورة البقرة المدنيه فى شأن المشركين « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » وقوله من سورة البقرة أيضا فى شأن المنافقين «ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » . إلى تمام ثلاث عشرة آية مليئة بالتوبيخ لهذا الصنف من الناس الذين ينفثون سمومهم ويفسدون المجتمع بسلاح خطير ذى حدين هو سلاح النفاق .

وفى السور المدنيه أيضاً فى شأن اليهود والنصارى آيات كثيرة من هذا النوع فيها نقد بتصرفاتهم ونعى لجرائمهم وتقبيحاً لجناياتهم وجنايات آبائهم من قبلهم . وذلك مثل قوله جل شأنه فى سورة آل عمران المدنية « ضربت عليهم الذلة أين ما تقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » ومن ذلك قوله أيضا فى سورة البقرة المكية « بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين » ، وكقوله تعالى فى شأن النصارى فى سورة آل عمران « إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين

كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين» وقوله : أيضاً فى نفس السورة «إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم إزدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون» .

وإذا تأملنا فى السور والآيات التى بنوا عليها زعمهم فى إشتمال القرآن المكى على السباب فإننا سنجدها لا تدل على ذلك السباب الذى أدعوه ووصموا به القرآن الكريم فسورة « تبت يدا أبى لهب» التى زعموا انها إشتملت على سباب شديد غاية ما تدل عليه إنها انذار ووعيد لأبى لهب وإمرأته جزاء اساءتهما الرسول ﷺ وصحبه. وسبب نزولها يدلنا على ذلك وسوف نذكره توضيحاً .

فنقول : أخرج الأمام أحمد والشيخان والترمذى عن ابن عباس قال : لما نزلت « وأنذر عشيرتك الأقربين » صعد النبى ﷺ على الصفا فجعل ينادى : يابنى فهر يابنى عدى لبطون قريش حتى إجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو ؟ فجاء أبو لهب وقريش فقال ﷺ : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم اكنتم مصدقى؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبالك ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن جرير عن ابن زيد أن امرأة أبى لهب كانت تأتى بأغصان الشوك تطرحها بالليل فى طريق الرسول ﷺ — وروى عن مجاهد إنها كانت تمشى بالنميمة .

فهذه الأسباب مجتمعة تفيد أن السورة نزلت لمقابلة أبى لهب بما يستحق

من انذاره بالهلاك والقطيعة وأن ماله لا ينفعه ولا كسبه وأنه خاسر هو وامرأته وأن مصيرهما إلى النار وبئس القرار .

ولا ريب أن فى هذا الوعيد العنيف رد عاله ولأمثاله وتسلية لمن أصيب بأذاهم من الرسول ﷺ وأصحابه وذلك هو اللائق بالعدالة الالهية والتربية الحكيمة الربانية . وأما سورة « الهاكم التكاثر » ففاية ما تدل عليه أنها تنعى على المخاطبين وهم أهل مكة انشغالهم بالدنيا عن الدين بالأموال عن ربهم ورب الأموال حتى انقضت حياتهم وهم على هذه الحال من الغفلة عن الآخرة مع أنهم سيسألون غداً عن هذا النعيم ويناله لسبب إهمال شكره العذاب الأليم فى سواء الجحيم .

وهكذا ليستطيع المتأمل المنصف فى كل آية إدعى خصوم الإسلام أنها تؤيد ما زعموه أن يستخرج منها دليلا على جهلهم باللغة العربية وأن يستنبط منها برهانا على فساد عقولهم ودفين حقدهم على الإسلام والمسلمين .

وصفوة القول فى دفع هذه الشبهات أن القرآن هو كتاب الله الذى انزله لهداية البشرية كلها يراعى حال المخاطبين فتارة يشتد وتارة يلين تبعاً لما يقتضيه حالهم سواء منهم مكيهم ومدنيهم والدليل على ذلك أننا نجد فى السورة المكية والمدنية ما هو وعد ووعيد وتسامح وتشديد وأخذ ورد وجذب وشد حسب ما تقتضيه أحوال المخاطبين .

ولعل السبب فى كثرة خطاب أهل مكة بالشدة والعنف ما مردوا عليه فى تعنتهم فى إذاء الرسول ﷺ وأصحابه والكيد لهم حتى أخرجهم من أوطانهم بل إنهم لم يكتفوا بذلك بل امتد إيذائهم لهم حتى بعد هجرتهم من مكة إلى المدينة وذلك لما حاولوه متعاونين مع اليهود والمنافقين والقضاء على الإسلام والمسلمين فى المدينة .

ولقد كان القرآن الكريم فى حملته عليه وعلى أمثالهم بالقول بعيداً كل البعد عن كل معانى السباب والإقذاع منذرعاً بالحكمة والآدب الكامل فى الإرشاد والإقناع حاثاً المسلمين على الصبر على أذى أهل مكة والإحسان إليهم . ومن أمثلة ذلك مخاطبة الله تعالى لرسوله فى سورة الأنعام المكية قوله « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله . ولقد جاءك من نبأ المرسلين وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن إستطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية . ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين. إنما يستجيب الذين يسمعون . والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون» .

ومما يدل على بطلان ما ادعاه المفترون على القرآن من اتسام كل القرآن المكى بطابع العنف والشدة وخلوه من اللين والصفح والعفو . أنه خلا خلواً تاما من تشريع الجهاد والقتال والمخاشنة كما خلت أيامه ﷺ فى مكة على طولها من معاملة القوم بمثل معاملتهم له ﷺ ولأصحابه « وغنى عن البيان أنهم كانوا يؤذونهم أشد الإيذاء » .

ولو سلمنا بغلبة اسلوب الشدة فى القرآن المكى واسلوب اللين فى القرآن المدنى فإن من البديهى أن هذا الإختلاف غير راجع إلى النبى ﷺ وتأثره بالبيئة وإنما مرجعه الذى يجب ألا يختلف فيه هو إختلاف حال المخاطبين. فقد كان أهل مكة قساة القلوب غلاظ الطباع . قليلوا المعارف طبعوا على الخشونة والجفوة أما أهل المدينة فقد كانوا أهل علم ومعرفة ويمتازون برقة الشعور والإحساس وليس من الحكمة أن يتفق الإسلوب مع إختلاف حال المخاطبين كما أنه ليس من البلاغة عدم مراعاة مقتضى الحال . والقرآن تنزيل من حكيم حميد عالم بما يصلح لكل من المخاطبين من اسلوب .

الشبهة الثانية

زعموا أن فى قصر الآيات والسور المكية وطول الآيات والسور المدنيه دليل على أن القرآن تأثر بالبيئة التى نزل فيها .

فلما كان محمد ﷺ فى مكة مبتدئا رسالته وهو أمى قصرت فقرات الآيات والسور ولما هاجر إلى المدينة حيث كان أهلها أهل معارف وعلوم تأثر بهم فاتسع خياله وانبسط كلامه وطال نفسه فطالت الآيات والسور تبعاً لذلك وغرضهم من هذه الشبهة هو نفس غرضهم من الشبهة السابقة وهو أن يثبتوا بشرية القرآن وأنه من صنع محمد ﷺ وأنه تأثر فيه بالبيئة التى كان يعيش فيها وقد أجبنا على تلك الشبهة آنفاً .

وإليك الجواب على هذه الشبهة .

أولا : إننا لا نسلم بإنفراد القسم المكى بقصار السور والآيات ولا إنفراد القسم المدنى بطول السور والآيات فإن فى القسم المكى سور وآيات طويلة كسورة الأنعام وآياتها وفى القسم المدنى سور قصيرة كقوله تعالى فى سورة النصر . « إذا جاء نصر الله والفتح » .

ثانياً : لو سلمنا لهم غلبة القصر على سور وآيات المكى وغلبة الطول على سور وآيات المدنى فإننا لا نسلم إنه يدل على تفكك الرابطة بين سور القرآن وآياته فإن صاحب الذوق البلاغى يدرك أن سور القرآن الكريم وآياته آخذ بعضها بحجزات بعض وكثيراً ما توجد آيات مكيه فى سور مدنية وآيات مدنية فى سور مكية ويقرأها البليغ والسليم السليقة ولا يرى بينها تفككا ولا إختلافا فى درجة الفصاحة والبلاغة .

أما السبب الحقيق لقصر الآيات فى السور المكية فهو أن أهل مكة كانوا فى الذروة من الفصاحة والبلاغة فناسبهم الإيجاز فى العبارة والإختصار فى الأسلوب . وأما أهل المدينة فقد كانوا رغم معارفهم وعلومهم وحضاراتهم ورقيهم أقل من القريشيين فى ميدان الفصاحة والبيان فناسبهم الاطناب والبسط ولا سيما قد كان يعيش معهم اليهود الذين كانوا يحتاجون فى مخاطبتهم ومناقشتهم إلى الإطناب والتطويل . . .

ثالثاً : ومما يضحد إفتراء هؤلاء المستشرقين على رسول الله ﷺ وعلى القرآن الكريم . أن القرآن قد تحدى الناس جميعا مكيهم ومدنيهم وعربهم وعجميهم أن يأتوا ولو بمثل أقصر سورة منه فعجزوا أجمعين وسحرت بلاغته المنصفون منهم فدخلوا فى الإسلام .

فلو أن الأمر كما زعموا أن قصر الآيات فى القرآن المكى راجعا إلى أنه جاء على إسلوب البيئات المنحطة لكان فى إستطاعة أهل المدينة وهم الممتازون المتحضرون أن يأتوا بمثل ذلك القرآن المكى بل بأرقى منه « سبحانك هذا بهتان عظيم » . ولكنه الثابت أن القرآن أعجز العرب جميعا عن أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه .

وهكذا يظهر إفتراء هؤلاء المستشرقين ومن سار فى فلكهم على النبى ﷺ وعلى القرآن الكريم .

الشبهة الثالثة

زعموا أخزاهم الله أن القسم المكى من القرآن جاء خاليا من التشريع والأحكام . وقالوا أن خلو المكى من التشريع والأحكام يدل على أن القرآن من وضع محمد ﷺ وتأليفه وأنه تأثر فيه بالوسط والبيئة التى كان يعيش فيها .

وفى الفترة التى كان فيها بمكة يعايش الأميين ويتأثر بهم جاء القرآن خاليا من المعارف والعلوم الراقية ولما هاجر من مكة إلى المدينة وعايش أهلها تأثر بهم فجاء القرآن المدنى مليئا بالعلوم والمعارف الراقية .

ونقض هذه الشبهة بما يأتى :

أولا : لا نسلم بأن القرآن المكى خلا من التشريع والأحكام فإن المتبع للقرآن المكى سيجد أنه تعرض للأحكام والتشريعات ولكن بطريقة إجمالية. وحسبنا أن نقرأ فى سورة الأنعام الآيات من أول قوله تعالى « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم » وإلى تمام ثلاث آيات بعـــدها لنرى أنها جمعت الوصايا العشر لمقاصد الدين الخمس .

١ — الإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره

٢ — حفظ النفس .

٣ — حفظ العقل .

٤ — وحفظ النسل .

٥ — حفظ المال .

هـذا ولا يختلف أثنان فى أن آيات العقائد فى القسم المكى كثيرة وظاهرة بل هى فيه أكثر منها فى القسم المدنى .

ثانيا : إن القرآن دائما كان يراعى مقتضى حال المخاطبين ولهذا نراه جدأ فى مكة بما هو أهم وهو إصلاح القلوب وتطهيرها من الشرك والوثنية وتقويمها بعقائد الإيمان الصحيح والتوحيد النقى الواضح حتى إذا إستقامت قلوبهم ونفوسهم على هذا المنهاج القويم وأدركوا مسئولية البعث والجزاء قطعهم عن أقبح العادات وأرذل الأخلاق وأرشدهم إلى أصول الآداب وفضائل العادات ثم أمرهم بما لابد منه من أمهات العبادات .

وهذا ما كان فى مكة ولما هاجروا إلى المدينة كانوا قد تمرنوا على ذلك وتهيأت نفوسهم للترقى والكمال بتطاول الأيام والسنين فجاءهم بتفصيل ما أجمله فى مكة من التشريع والأحكام فاتم عليهم نعمته ببيان دقائق الدين وقوانين الاسلام .

وهذا منهج قويم من مناهج التربية نظيره ما تعارف عليه القائمون بامر التربية قديما وحديثا من تلقين الأطفال المبتدئين فى مراحل التعليم أيسر المسائل وأوجزها فيما يشبه قصار السور ومختصر القصص : فإذا تقدم بهم العمر والفكر لقنوا من المعلومات ما يناسب حالهم على حد قول القائل :

« الامداد على قدر الاستعداد » .

أما ما زعمه المستشرقون من تأثر القرآن المدنى بثقافة أهل الكتاب الذين كانوا يعيشون فى المدينة . فينقضه أن القرآن جاء ليصلح عقائد أهل الكتاب وأخطاءهم فى التشريع وفى التحليل والتحريم وفى الأخبار والتواريخ فهل من المعقول أن ينعى القرآن عليهم تحريفهم الكلم عن مواضعه ثم يقتبس منه ؟

وهل يجوز فى العقل السليم أن يقتبس المحسن من المسىء .

هذا ومن المعلوم أن التشريع فى الأمم السابقة كان ينزل خاصاً بشعب خاص ومؤقتاً بوقت وحين وأما شريعة القرآن فإنها كانت مهيمنة على جميع الشرائع وجاءت بالأسس القويمة التى تضمن لها الخلود إلى يوم القيامه والقارىء للقرآن الكريم يجد فيه آيات لعن الله فيها الذين كفروا من بنى إسرائيل بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف ،

والقارىء الكريم للقرآن الكريم أيضاً سيجد فيه آيات كثيرة تبين أخطاء أهل الكتاب ومنها على سبيل المثال قوله تعالى « يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم . وما أنزلت التوارة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ؟» إلى قوله «كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة » وقوله « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن » والسن بالسن والجروح قصاص .

الشبهة الرابعة

قالوا إن القرآن المكى يكثر فيه القسم بالأشياء الحسية كالتين والزيتون وطور سنين وبالضحى وبالليل والشمس والقمر والنهار والنجم وكثير من المخلوقات ، ولا شك أن مجىء القسم بهذه الأشياء الحسية فى القرآن يدل على تأثر القرآن بالبيئة التى نزل فيها فقد كان أهلها قوم أميين بسطاء لا تعد مداركهم حدود الحسيات ، أما بعد أن هاجر النبى ﷺ إلى المدينة واتصل بأهلها المستنيرين المتحضرين المثقفين فقد خلا القرآن المدنى من تلك الأيمان الحسية الدالة على البساطة والسذاجة وما ذلك إلا نتيجة تأثره بالبيئة التى هاجر محمد ﷺ إليها .

الرد على هذه الشبهة :

والحق أن إقسام القرآن بالمحسوسات لهس دليلا على سذاجة المخاطبين وإنحطاطهم ولا يجوز أن يتخذ سبيلا للطعن فى القرآن الكريم والزعم بأنه كلام محمد قاله متأثراً فيه بإنحطاط البيئة المكية التى كان يعيش فيها .

ويمكن أن نجيب عن هذه الشبهه .

أولا : تقديم فى ردنا على الشبهة السابقة مايدل على أن أهل مكة لم يكونوا كما زعم خصوم الإسلام أقل ذكاء وبلاغة وفصاحة وثقافة من أهل المدينة بل إن العكس هو الصحيح فقد كان أهل مكة أوفى ذوقاً فى العربية وأفصح لغة وأعظم ذكاء من أهل المدينة وقد كان الخطاب معهم ملحوظاً فيه إشتماله على أسرار وخصائص لايدركها إلا المتفوقون المتمهرون فى صناعة البيان ويشهد التاريخ بإمتياز العرب فى مكة عن سائر القبائل إبان نزول القرآن .

ثانياً : بما إن القرآن نزل بلغة العرب وجرت إساليبه على ما ألفوه فى مخاطباتهم ليكون مفهوماً لديهم ومحبباً إلى نفوسهم. ولما كان القسم إسلوباً من أساليب لغة العرب فقد جاء فى القرآن الكريم وقد كان العرب يقدسون القسم ولا يحلفون إلا صدقاً لاعتقادهم أن اليمين الكاذبة تدع الديار خرباً وتصيب صاحبها شؤم الإيمان .

ومن هنا كان إستعمال القرآن له عنـــد مايريد أن يقرر أمراً عظيماً وليحملهم على التزامه كأن يكون شيئاً أنكره بعض الناس او أحتقروه أو غفلوا عن فائدته أو ذهلوا عن موضع العبرة فيه أو لتعظيم شأنه فى نفس من يحتقروته أو لتنبيه الشعور إلى ما فيه من حكم أو أسرار أو لقلب

الإعتقاد فى قلب من أضله الوهم أو خانه الفهم أو للكشف عن دلائل وحدانيته وآيات قدرته تعالى .

ولما كان القرآن الكريم يراعى مقتضى حال المخاطبين فقد شاع القسم فى القسم المكى بهذه الأشياء السابقة لأنه الذى يناسب حال الناس فى ذلك العهد . فقد تناولت الموضوعات الذى ذكر فيها القسم بالأصول الثلاثة (الوحدانية — الرسالة — البعث) أو بعضها تارة بإجمال وتارة بتفصيل حسب المقام ولقد كان معظم نزول المكى فى هذه الأصول مع أصول التشريع الإجمالية والآداب والفضائل الخلقية .

والمتأمل فى لطائف القرآن الكريم سيجد أن أقسامه كلها دلائل أخرجها سبحانه فى سورة الإيمان وإنما أخرجها مخرج الأيمان لأن المتكلم إذا شرع فى كلامه بالقسم يعلم السامع أنه يريد أن يتكلم فى أمر عظيم فيصغى إليه ، وأدرج القرآن الدليل فى صورة اليمين حتى يقبل القوم على سماعه فيخرج لهم البرهان الواضح كذلك(١) .

ثالثاً : أن فى القسم بهذه الأشياء إشارة إلى الأسرار العظيمة التى وضعها الحق جل شأنه فى تلك الأمور التى أقسم بها .

حتى صح أن يكون مقسماً بها ، وتلك الأسرار لا يدركها إلا اللبيب لأنها غير مشروحة ولا مفسرة فى القرآن الكريم ولا يفهمها إلا صاحب العقل السليم والذوق المستقيم .

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٧ ص ٦٢٧ وعلوم القرآن ٨٦

الشبهة الخامسة

قالوا : إن القرآن المكى اشتمل على لغو من الكلام وذلك فى كثير من فواتح السور مثل « آلم وكهيعص » واشتماله على مثل هذه الحروف التى لا معنى لها يبطل ما إدعاه المسلمون من أن القرآن كتاب هداية وإنه كلام الله نزل على محمد ﷺ من عنـــد الله فأى بيان وأى هدى فى قوله « آلم وكهيعص » بل هذه الأحرف وأمثالها فى غاية البعد عن الهدى بدليل أنه لم يتهد أحد منهم حتى ولا الراسخون فى العلم لإدراك معناها فالخطاب بها كالخطاب بالمهمل ، وإنما هذه الألفاظ من كتبة محمد ﷺ من اليهود تلبيساً على إنقطاع كلام واستئناف آخر .

ومعناها « أو عز إلى محمد » أو « أمرنى محمد» يشيرون بذلك إلى بواعثهم من الإيمان بما يأمرهم بكتابته « وقريب من هذا قول بعضهم إن الحروف العربية غير المعومه المفتتح بها أوائل بعض السور . إما أن يكون قصد منها التعمية أو للتهويل أو إظهار القرآن فى مظهر عميق مخيف أو هى رمز للتميز بين المصاحف المختلفة ثم إلحاقها بمرور الزمن(١) .

وترد على هذه الشبهة بما يأتى :

أولا : أن دعواهم بأن هذه الحروف قد وضعها الذين كتبوا القرآن لمحمد ﷺ من اليهود دعوى لا دليل عليها لأن التاريخ لم يحفظ لنا ولا إسماً واحداً من أسماء الذين كتبوا القرآن للنبى ﷺ من اليهود كما زعم هؤلاء .

ثانياً : أنه لا دليل لهم أيضاً على أن فواتح هذه السور تشتمل فى تلك

---

(١) المناهل ط — ص ٢٢٥

المعانى التى زعموها وهى « أو عز إلى محمد » أو « أمرنى محمد » لا عند اليهود ولا عند غيرهم فى آية لغة من لغات البشر .

ثالثاً : أن اليهود رغم عدائهم للقرآن الكريم لم يعرف عنهم الطعن فى مثل هذا لوكان هذا مطعناً عندهم لكانوا أول الناس جهراً به وتوجيهاً له . فقد كانوا يتمنون أن يجدوا فى القرآن مغمزاً من أى نوع يكون ليهدموا به دعوة الإسلام ، كيف وهم يكفرون به حسداً من عند أنفسهم من ما تبين لهم الحق ؟

رابعاً : ان إشتمال القرآن على كلمات غير ظاهرة المعنى لاينافى وصف القرآن بأنه بيان للناس وهدى ورحمة فإن هذه الأوصاف يكفى فى تحققها بثبوتها للقرآن بإعتبار جملته ومجموعه لا بإعتبار تفصيله وعمومه الشامل لكل لفظ فيه ، ولاريب أن الكثرة الغامره فى القرآن كلها بيان للتعاليم الإلهية وهداية للخلق إلى الحق ورحمة للعالم من وراء تقرير أصول السعادة فى الدنيا والآخرة .

وهذا الجواب مبنى على أحد رأيين للعلماء فى فواتح تلك السور وهو أن المعنى المقصود غير معلوم لنا ، بل هو من الأسرار التى استأثر الله بعلمها ولم يطلع عليها أحد من خلقه . وذلك لحكم من حكمه تعالى السامية وهى ابتلاؤه سبحانه وتمحيصه العباده حتى يميز الخبيث من الطيب وصادق الإيمان من المناقق ، بعد أن أقام لهم أعلام بيانه ودلائل هدايته وشواهد رحمته فى غير تلك الفواتح من كتابه بين آيات وسور كثيرة لا تعتبر تلك الفواتح فى جانبها إلا قطرة من بحر أو غيضا من فيض ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أن هذه الفواتح حق من عند ربهم ولو لم يفهموا معناها ولم يدركوا مغزاها ثقة منهم بأنها صادرة من لدن حكيم عليم عمت حكمته ما خفى وماظهر من معانى كتابه ووسع علمه كل شىء عرفه الخلق أو لم يعرفوه من أسرار تنزيله ، ولايحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء .

« وأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه إبتغاء الفتنة وإبتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله » .

ونظير ذلك :

ولله المثل الأعلى: أن تختبر أصدقاءك لما يظهر لك المخلصين منهم وغيرهم ومثله أيضاً ما يختبر به الأستاذ تلاميذه من كلمات فيها شيء من الالغاز ليظهر له الذكى منهم من الغبي والواثق بعلمه من غير الواثق به :

الرأى الثانى فى فواتح السور : أن بها معنى مقصوداً معلوماً قالوا لان القرآن كتاب هداية ، والهداية لا تتحقق إلا بفهم المعنى خصوصاً إننا أمرنا بتدبر القرآن والاستنباط منه وهذا لايكون إلا إذا فهم المعنى أيضاً .

وقد اختلف أصحاب هذا الرأى فى بيان هذا المعنى المقصود بفواتح تلك السور ، فقال بعضهم أن فاتحة كل سورة أسم للسورة التى افتتحت بها ، واستدل بمثل قوله ﷺ بس قلب القرآن وقوله « من قرأ السجدة حفظ إلى أن يصبح » ومنها اشتهار بعض السور بالتسمية بها .

وبعضهم ذهب إلى أنها أسماء للحروف الهجائية التى وضعت بإزائها وهؤلاء منهم من قال : إن المقصود من ذلك هو إفهام المخاطبين أن الذى سيتلى عليهم من الكلام الذى عجزوا عن معارضته والاتيان بمثله إنما تركب من مثل هذه الحروف التى فى الفواتح وهى معروفه لهم يتخاطبون بما يدور عليها ولا يخرج عنها .

ومنهم من قال : إن المقصود منها هو الدلالة على الانتهاء والشروع فى آخرى .

ومنهم من قال إن المقصود فيها بيان لنبوة محمد ﷺ من ناحية أنه ينطق بأسامى الحروف مع أنه أمى لم يكتب والمعروف أن النطق بأسامى الحروف

من شأن القارىء وحده لا سبيل للأمى إلى معرفتها والنطق بها فإتيانه بها وترديده لها دليل مادى أمامهم على أنه لا يأتى بهذا القرآن من تلقاء نفسه إنما يتلقاه من لدن حكيم عليهم .

ومنهم من قال : إن المقصود منها هو تنبيه السامعين إيقاظهم وذلك أن قرع السمع فى أول الكلام لما يعى النفوس فهمه أو بالأمر الغريب دافع لها أن تصغى وتتيقظ وتتأمل وتزداد إقبالا ، فهى كوسائل التشويق التى تعرض فى مقدمة الدرس على منهج التربية الحديثه فى التعليم .

ومنهم من قال : إن المقصود منها سياسة النفوس المعرضة عن القرآن واستدراجها إلى الإستماع إليه ، والمعروف أن أعداء الإسلام فى صدر الدعوة كانوا يقولون بعضهم لبعض «لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون» فلما أزلت السور المبدوءة بحروف الهجاء وقرع أسماعهم مالم يألفوا التفتوا فإذاهم أمام بينات استهوت قلوبهم واستمالت عقولهم

وغنى عن البيان أن الرأى الثانى فى فواتح السور أبلغ فى نقض الشبهة من الرأى الأول لأنه ينفى مازعموه من أساس الإتهام وهو أنه ليس لهذه الفواتح معنى مفهوم ويقرر أن معانيها مفهوم على ماتبين فى تلك الوجوه السابقة وإذا كان بعض الناس لا يفهم تلك المعانى فليس ذلك عيباً فى القرآن فانه خوطب به الخواص كما خوطب به العوام فلا يدع أن يكون فيه ألفاظ لا يفهمها إلا الخاصة دون العامة .

وعلى كلا هذين الرأيين يتضح لك أن اشتمال القرآن على هذه الألفاظ ليس من قبيل اشتماله على لغو الكلام أو إظهار القرآن بمظهر عيق مخيف ولا يفهم منه أنها رموز للمصاحف ألحقها مرور الزمن بالقرآن إلى غير ذلك من الهذيان بل ثبوت هذه الفواتح لا يقدح فى كون القرآن من عند الله

سواء أفادت معنى ظاهراً أم لم تفد على ماعيناه من حكمة الله البالغة فى إيرادها والله هو الحكيم العليم .

وبعد فقد تبين لك أيها القارىء الكريم زيف ماأثاره خصوم الإسلام من شبهات حول المكى والمدنى من القرآن الكريم بما بسطناه من ردود لها وسيظل القرآن الكريم كما أراد الله تعالى له أن يكون المعجزه الخالدة الكبرى لمحمد ﷺ وسوف يحفظه الله كما وعد حتى يرث الله الأرض وما عليها . وصدق الله العظيم القائل « إنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون » .